بدأتْ قصتي بخيطٍ ثوريّ

• زينة الكاظمي*

لم أَصِلْ بعدُ. مازلتُ أمشي. وصلتُ.

وجدتُ نفسي على هضبةٍ صغيرةٍ انتشرت الأزهارُ فيها. لم أَستطع تحديدَ ألوانها تحت ضوء القمر. القمر بدرٌ، ولكنّ الزهور سوداء.

جلستُ قرب النّبع الصغير الذي مالبث أن تحوّل إلى جدول يتمايل على كعب الهضبة.

جلستْ أفكُّ ضفائري العديدة التي انتشرتْ في شعري الأسود. صورتي على صفحة مياه الجدول المعكّرة. نظرتُ إلى نفسي في صفحة المياه التي أضاءتْها فجواتُ القمر. أرى أنّ سطح القمر ليس مالسًا.

أَنْظر إلى السماء، وأركّز نظري على نجمة واحدة. أنام على فراش الزهور وأنا أتمعّن في تلك النجمة. أحاول تحريكَ النجمات الأخريات بشكل دائريّ. يَضْعُف تركيزي، فأكمل فكَّ باقي ضفائري الصغيرة.

نظرتُ أمامي، فرأيتُ الدَّغَلَ.

حاولت مقلتاي سبرَ أعماقه ولكنّ قِصَرَ النظر أرجعهما من تجوالهما خائبتَيْن.

يَبْعد عني بضعةَ أمتار فقط.

أخذتُ حبّة المانغا وأمسكتُ بحذائي البلاستيكيّ.

تذكّرتُ حقل الكاكاو صباحًا. تذكّرتُ الأطفال، كلّهم من عمري، نَعْمل بصمت.

لم أذقْ طعمَ الشوكولاته. حبّةُ الكاكاو قاسية، لم أستطع قضمها.

لمستُ عقدَ حبّات الكاكاو حول رقبتي. لن أحبَّ الشوكولاته إذا ذقتُها.

صديقتي زيلي كانت تَعْمل في مزرعة القطن. تشبه أميرةً سوداء بين غيوم الثلج. لم أرَ الثلج قطّ.

ديارا، صديقُنا، هو الذي أخبرنا عن الثلج. قال إنّ لونه أبيض وإنّه بارد.

لا أحبُّ البرد.

مازلتُ قرب النبع وقد أصبح شعري الطويل دَغَلاً في حدّ ذاته.

شعري ليس كالفتيات الأخريات.

أُمّي ليست أفريقيّة.

أمّي اسمها إنغا، من بلاد بعيدة اسمُها هولندا.

لا أَذْكر عنها شيئًا سوى شعرها الأحمر الثوريّ وثيابِها الملوّنة.

كانت امرأةً طويلةً وعَيْناها بلون العسل. هذا ما قاله والدي.

وكان هذا منذ وقت طويل، قبل أن يأخذوني إلى مزرعة الكاكاو.

فستاني البنيّ الجميل، ولكنْ... هنالك خيطٌ غادَرَ باقي النسيج، كما لو أنّه يثور على نظام القُطَبِ المتشابكة. إنّه خيطٌ ثوريّ.

بدأتُ أشدُّ الخيط، فبدأ فستاني يتنسّل. ربطتُ طرفَ الخيط بغصن شجرة صغيرة.

مشيتُ. وكلّما مشيتُ نحو الدَّغَل طال الخيطُ وقَصُرَ فستاني.

دخلتُ في الدَّغل.. لم أعد أفرّق شعري الأسودَ عن الظلام.

---

* ـ كاتبة من لبنان عمرها ١٧ سنة.

بدأتْ أصواتُ الحشرات تعلو، فتعلو معها وتَخْتلط أصواتُ الحيوانات.

أمشي بسرعة نحو الدَّغَل. أنا في الدَّغَل. أمشي في الظلام. لم أعد أرى القمر؛ أتخيَّله بدرًا.

أضع يديّ على أذنيّ لأَعْزل الضجيج، وأركض بين الأشجار. الطرق الملتوية تأخذني بعيدًا. الطرق تُشْبه ضفائري.

خفتُ لحظةً، فتسلَّقتُ شجرةً كبيرة، شجرةَ «باوُب.»

جلستُ أنتظر الأصوات حتى تخفّ.

لم أَسْتطع رؤيةَ الخيط، ولكنَّ فستاني أصبح يغطّي نصفَ صدري.

نزلتُ عن الشجرة وركضتُ بسرعة هائلة. لم أصبح ضوءًا ولكنّني لم أعد أسمع الأصوات؛ كنتُ أسرع منها. أعدو.

رأيتُ شريط حياتي يمرُّ أمامي: حقل الكاكاو والأطفال، السيّد تيرنر القاسي، الحظيرة حيث أنام مع الأحصنة، حصاني المفضّل، صديقتي زيلي. ماتت.

مازلتُ أَرْكض. لا أرى ثلجًا. لم أَعُدْ أشعر بالريح في شعري.

لم يَعُدْ لديّ فستان بنيّ، أصبح خيطًا، أصبح جزءًا من الدَّغَل.

حافيةُ القدمين، أكاد لا أَلْمس الأرضَ.

وصلتُ إلى ساحة. رأيت النار في وسطها. وقفتُ قليلاً. لم أتحرّك.

فجأةً، سمعتُ طلقةَ نار.

وقعتُ.

يَسْبح جلدي الأسودُ في بقعة الدماء السوداء.

أئنّ من الألم، ولكنّ صوتي لم يَكُنْ صوتَ فتاةٍ صغيرة.

ربما هذا هو صوتُ الموت. لا أرى بوضوح.

أرى يدي، كلا. ليست يدي.

أتذكَّر النبعَ. أَنْظر إلى صفحة المياه مجدَّدًا. أرى شيئًا جديدًا.

لا أرى نفسي، بل أرى فهدًا أسود ذا عَيْنَيْن بلون العسل؛ إنَّه لونُ عينيْ أمّي.

الفهد الذي رَكَضَ في دَغَل أفريقيا. ترك خيطًا وراءه. آخرُ الخيط في حقل الكاكاو.

أنا متّ. لم أَمتِ الآن، بل منذ زمن.

آخرُ خيط حياتي كان في حقل الكاكاو.

زيلي وأنا كنّا نَعْمل في حقل الكاكاو، هربنا.

لحقونا، قتلونا. كنّا طفلتيْن.

الآن، أنا فهدٌ صغير. قتلوني، هم ذاتهم.

في ذكرى زيلي...

لا طفلَ في إفريقيا يموت. بل هو يَحْيا حيث الأدغالُ، وحرارةُ الشمس التي ترحّب بهم مرارًا وتكرارًا.

بيروت